أسباب النزول وأثرها في فهم معاني الآيات القرآنية
قراءة في تفسير المنار

دكتور/ شعبان رمضان محمود محمد مقلد
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك في جامعة الجوف
المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله ، والصلاة والسلام على خاتم رسل الله ، محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فإن أسباب النزول من المباحث المتعلقة بالقرآن الكريم، ولها أثرها البين في فهم معاني الآيات القرآنية، وقليل من المفسرين الذين نظروا في هذا المبحث نظرة تأملية، ومن هؤلاء السيد رشيد رضا في تفسير المنار، فكانت له نظرة خاصة لأسباب النزول تختلف عن نظرة كثير من المفسرين، فقد تأمل في روايات أسباب النزول، وحاول أن يوازن بين الوحدة الموضوعية للآيات وسبب نزولها، ومن هنا جاءت فكرة هذه الدراسة، لتبرز نظرة صاحب المنار لأسباب النزول، وتعرفنا بتمسكه بالوحدة الموضوعية للآيات.

والدراسة تهدف إلى بيان منهج رشيد رضا في أسباب النزول، وإبراز الجهد الذي بذله في هذا الجانب، وتمسكه ودفاعه عن وحدة الآيات وترابطها.

منهج الدراسة

يستخدم الدارس المنهج الجمعي الاستقرائي الوصفي فالتحليلي الاستنباطي، حيث تتبع نصوص أسباب النزول في تفسير المنار ــ قدر استطاعته ــ وقد راعى ما يأتي:

* عزو الآيات القرآنية إلى سورها، وذكر اسم السورة ورقم الآية منها.
* تخريج الأحاديث والآثار من مصادرها الأصلية.

* الاقتصار على بعض النماذج – خشية الإطالة – وتحليلها واستنباط فكرتها وهدف المؤلف منها.

الدراسات السابقة

حقيقة لا أدعي السبق في الحديث عن تفسير المنار، إلا أنني لم أعثر ولم أسمع بأحد كتب في نظرة رشيد رضا إلى أسباب النزول، وكل ما كتب عن هذا التفسير إما عن مهجه بوجه عام، دون التطرق لجانب أسباب النزول، وإما عن بيان أسلوبه، أو طريقته، أو دعوته إلى الإصلاح والتجديد من خلال أسلوبه التفسيري.

تساؤلات الدراسة

- ما المقصود بأسباب النزول، وعلم أسباب النزول ؟
- ما الفوائد وما الآثار التي تعود على الدارس والمفسر من العلم بأسباب النزول؟
- هل هناك أهمية لدراسة هذه الأسباب ؟
- ما هي نظرة صاحب المنار لأسباب النزول، وهل تختلف عن نظرة غيره من المفسرين لتلك الأسباب ؟

مكونات الدراسة

خرجت هذه الدراسة في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، **أما المقدمة** فتلك التي نحن بصددها وبها الإطار التنظيري للدراسة.

وأما المباحث فهي كما يلي:

المبحث الأول: التعريف بأسباب النزول، وفوائد العلم بها في تفسير آيات القرآن الكريم.

وفيه مطلبان: الأول في التعريف بأسباب النزول.

والثاني في فوائد العلم بها.

المبحث الثاني: التعريف بتفسير المنار ومؤلفه.

وفيه مطلبان: الأول في التعريف بتفسير المنار.

والثاني في التعريف بصاحبه.

المبحث الثالث:نظرة صاحب المنار لأسباب النزول.

وأخيرًا خاتمة البحث، وشملت أهم نتائجه، ثم فهرس المصادر والمراجع.

المبحث الأول

التعريف بأسباب النزول،

وفوائد العلم بها في تفسير آيات القرآن الكريم.

المطلب الأول: التعريف بأسباب النزول

بادئ ذي بدء ينبغي أن يُعلم أن القرآن الكريم من حيث سبب النزول وعدمه ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : قسم نزل من الله ابتداءً غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة، إنما هو لمحض هداية الخلق إلى الحق، وإرشادهم على الأفضل في هذه الحياة، وهو كثير ظاهر في القرآن الكريم .

والقسم الثاني: قسم نزل مرتبطاً بسبب من الأسباب الخاصة – وهو موضوع البحث – ، وهو كثير في القرآن الكريم، مثل حديث الإفك، أو إجابة عن سؤال، أو بيان لأمر يتعلق بحادثة معينة [1] .

وقد يُسمى القسم الأول بالابتدائي، والقسم الثاني بالسببي، بأنه ما لم يتقدم نزوله سبب يقتضيه، والسببي بأنه: ما نزل مرتبطاً بسبب من الأسباب الخاصة.([2])

أما عن تعريف سبب النزول:

فالسبب في لغة العرب: الْحَبْلُ، وَهُوَ مَا يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الِاسْتِعْلَاءِ، ثُمَّ اُسْتُعِيرَ لِكُلِّ شَيْءٍ يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى أَمْرٍ مِنْ الْأُمُورِ فَقِيلَ هَذَا سَبَبُ هَذَا وَهَذَا مُسَبَّبٌ عَنْ هَذَا.([3])

إذن فالسبب في اللغة: اسم لما يتوصل به إلى المقصود.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، (٢٩/١)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، ومناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزُرْقاني،(١٠٦/١)، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثالثة.

([2]) انظر هذا التقسيم بتصرف في: مباحث في علوم القرآن، لصبحي الصالح، (ص١٣٢)، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة والعشرون كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠م

([3]) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، مادة:(سبب)، (٢٦٢/١)، أحمد بن محمد بن علي، المكتبة العلمية، بيروت، معجم اللغة العربية المعاصرة، (١٠٢٢/٢)، أحمد مختار عبد الحميد عمر، عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م، مختار الصحاح، مادة: (سبب)، (١٤٠/١)، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م

أما في الشريعة فهو: عبارة عما يكون طريقًا للوصول إلى الحكم غير مؤثر فيه.([1])
وسبب النزول هو: ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه، أو مبينة لحكمةٍ أيام وقوعه.([2])
وقيل هو: "ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه" كحادثة تقع حين نزول القرآن الكريم فتنزل آية أو آيات من القرآن تبين الحكم فيها أو كسؤال يوجه إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم– فتنزل آية أو آيات من القرآن الكريم وفيها الإجابة عليه.(٣)
وقريب منه قولهم في تعريفه: كل قول أو فعل نزل بشأنه قرآن عند وقوعه.([4])
والعلم لغة: الفهم والإدراك، وضده الجهل ([5]) .
واصطلاحاً: المسائل المنضبطة بجهة واحدة، ويطلق شرعاً على معرفة الله وآياته. ([6])
أما عن علم أسباب النزول فقالوا في التعريف به: إنه العلم الذي يختص بمعرفة ما لبعض آي القرآن الكريم من سبب نزلت بشأنه، أو سؤال وقعت الآية جواباً عنه في زمن نزول الوحي.([7])

([1]) كتاب التعريفات، (١١٧/١)، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، تحقيق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م

([2]) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزُرْقاني،(١٠٦/١)، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثالثة، ودراسات في علوم القرآن الكريم، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، الطبعة: الثانية عشرة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

([3]) دراسات في علوم القرآن الكريم، (١٣٦/١)، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، الثانية عشرة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

([4]) المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة، خالد بن سليمان المزيني، (١٠٥/١)، دار ابن الجوزي، الدمام، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، (١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م)

([5]) لسان العرب، لجمال الدين بن منظور، مادة: (علم)، والبحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، (٣٤٥/٥)، ط: دار الفكر، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود، (٣٢/٤)، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

([6]) مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني (١٣،١٢/١)، ط. دار إحياء الكتب العربية، لفيصل بن عيسى البابي الحلبي – القاهرة.

([7]) مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن،(١٦٣/١)، عبد الجواد خلف محمد عبد الجواد،دار البيان العربي، القاهرة

وقيل فيه أيضاً: ذِكْرُ كل ما يتصل بنزول الآيات القرآنية من القضايا والحوادث، سواء في ذلك قضايا المكان أو حوادث الزمان، التي صاحبت نزول القرآن الكريم.([1])

وخلاصة القول أن سبب النزول هو: ما نزلت بشأنه بعض الآيات القرآنية وقت وقوعه متحدثة عنه، كحادثة وقعت، أو مبينة لحكمه، كجواب عن سؤال.

وعلم أسباب النزول هو: العلم الذي يختص بمعرفة نزول الآيات القرآنية من القضايا والحوادث زماناً ومكاناً.

المطلب الثاني: فوائد العلم بأسباب النزول

بعد التعرف على علم أسباب النزول نعرج على التعرف على فوائد العلم به، إذ أنه ربما يقول قائل: ما الفائدة التي تعود على الدارس من معرفته لأسباب النزول، أو يقول آخر: إن هذا العلم يجري مجرى التاريخ، ولا فائدة لأهل التفسير منه، قال الزركشي: زعم بعض الناس أنه لا فائدة للإلمام بأسباب النزول وأنها لا تعدو أن تكون تاريخا للنزول أو جارية مجرى التاريخ وقد أخطأ فيما زعم فإن لأسباب النزول فوائد متعددة لا فائدة واحدة.([2])

وللشاطبي كلام نفيس في هذه الفوائد، أنقل بعضه بنصه، إذ يقول: "معرفة أسباب التنزيل لازمة لمن أراد علم القرآن، والدليل على ذلك أمران:

أحدهما: أن علم المعاني والبيان الذي يعرف به إعجاز نظم القرآن ــ فضلاً عن معرفة مقاصد كلام العرب ــ إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال: حال الخطاب من جهة نفس الخطاب أو المخاطِب أو المخاطَب أو الجميع؛ إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالَين، وبحسب مخاطَبين، وبحسب غير ذلك؛ كالاستفهام لفظه واحد ويدخله معان أخر من تقرير وتوبيخ وغير ذلك، وكالأمر يدخله معنى الإباحة والتهديد والتعجيز وأشباهها، ولا يدل على معناها المراد إلا الأمور الخارجة، وعمدتها مقتضيات الأحوال، وليس كل حال يُنقل، ولا كل قرينة تَقترن بنفس الكلام المنقول، وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة فات فهم الكلام جملة، أو فهم شيء منه، ومعرفة

([1]) مباحث في علوم القرآن، لصبحي الصالح، (ص١٢٢)،(بتصرف)، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة والعشرون كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠م

(٢) مناهل العرفان (٢٢/١)

الأسباب رافعة لكل مشكل في هذا النمط فهي من المهمات في فهم الكتاب بلا بُدٍّ، ومعنى معرفة السبب هو معنى معرفة مقتضى الحال وينشأ عن هذا الوجه:

الوجه الثاني: وهو أن الجهل بأسباب التنْزيل مُوقِعٌ في الشبه والإشكالات، ومُورِدٌ للنصوص الظاهرة مورد الإجمال حتى يقع الاختلاف وذلك مظنة وقوع النِّزاع ..." وذكر أمثلة مما وقع فيه الإشكال بسبب عدم معرفة سبب النُّزول. (١)

ويمكننا الرد على من يدعون بانعدام الفائدة من أسباب النزول، أو جريانها مجرى التاريخ، بالتأمل في فوائد العلم بها، والتي ذكرها كثير من العلماء في مصنفاتهم، ونوجز ما ذكروه هنا في عدة نقاط كما يلي: (٢)

الفائدة الأولى: التأكيد على أن القرآن الكريم نزل من عند الله تعالى، وذلك لأن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان يُسأل عن الشيء فيتوقف عن الجواب أحياناً حتى ينزل عليه الوحي، أو يخفي الأمر الواقع، فينزل الوحي مبينا له، قال تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [الإسراء :٨٥] . ففي صحيح البخاري "(٣) عن عبد الله ابن مسعود – رضي الله عنه –: أن رجلا من اليهود قال : يا أبا القاسم ما الروح ؟ فسكت ، وفي لفظ : فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يرد عليهم شيئا ، فعلمت أنه يوح إليه، فقمت مقامي ، فلما نزل الوحي قال

---

(١) الموافقات، لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، (١٤٦/٤-١٥٣)، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م

(٢) ينظر في هذا الباب: الإتقان في علوم القرآن، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، (١٠٧/١-١٠٩)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، ومناهل العرفان في علوم القرآن، (١٠٩،١١٠/١)، محمد عبد العظيم الزُّرْقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي، الطبعة: الطبعة الثالثة، والبرهان في علوم القرآن، للزركشي، (٢٢/١-٢٩)، ومباحث في علوم القرآن، لمناع خليل القطان، (٧٩/١-٨٢)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة: الطبعة الثالثة ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م، والمحرر في علوم القرآن، (١٣٢/١)، وما بعدها، مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، الطبعة: الثانية، ١٤٢٩ هـ- ٢٠٠٨م

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب قوله تعالي: "وما أوتيتم من العلم إلا قليلا" حديث رقم: (١٢٥) ومسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب: سؤال اليهود النبي – صلى الله عليه وسلم – عن الروح ، وقوله (ويسألونك عن الروح ...) الآية . حديث رقم (٢٧٩٤).

﴿ وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [الإسراء :٨٥]

الفائدة الثانية: الاستعانة على فهم الآية ودفع الإشكال عنها، قال الواحدي: لا يمكن مَعْرِفَةِ تَفْسِيرِ الْآيَةِ وَقَصْدِ سَبِيلِهَا، دُونَ الْوُقُوفِ عَلَى قِصَّتِهَا وَبَيَانِ نُزُولِهَا.(١)

وقال ابن دقيق العيد بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن،(٢) وقال ابن تيميه معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب،(٣) وقد أشكل على جماعة من السلف معاني آيات حتى وقفوا على أسباب نزولها فزال عنهم الإشكال.(٤)

فمن الأمثلة على الاستعانة في فهم الآية قول الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ المَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٥]

فهذا اللفظ الكريم يدل بظاهره على أن للإنسان أن يصلي إلى أية جهة شاء ولا يجب عليه أن يولي وجهه شطر البيت الحرام لا في سفر ولا حضر، لكن إذا علم أن هذه الآية نازلة في نافلة السفر خاصة أو فيمن صلى باجتهاده ثم بان له خطؤه؛ تبين له أن الظاهر غير مراد إنما المراد التخفيف على خصوص المسافر في صلاة النافلة أو على المجتهد في القبلة إذا صلى وتبين له خطؤه. (٥)

ومن الأمثلة على دفع الإشكال: أنه أشكل على عروة بن الزبير – رضي الله عنهما – أن يفهم فريضة السعي بين الصفا والمروة من قوله ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٥٨] وذلك لأن الآية نفت الجُناح ، ونفي الجناح لا يدل على الفرضية ، حتى سأل خالته السيدة عائشة – رضي الله عنها – عن ذلك ، فأفهمته أن

(١) أسباب النزول، لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري، (١٠/١) تحقيق: كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ

(٢) أورد هذه العبارة: السيوطي، في الإتقان، (١٠٨/١)

(٣) مقدمة في أصول التفسير (ص ٥١)

(٤) لباب النقول في أسباب النزول، (٣/١)

(٥) الإتقان، السيوطي، (٢٩/١)، وانظر البرهان، للزركشي، (١/ ٥٢-٥٣)، ومناهل العرفان (٧٨/١)

نفي الجُناح ليس نفياً للفرضية ، إنما هو نفي لما وقر في أذهان المسلمين يومئذٍ من التحرج والتأثم من السعي بين الصفا والمروة ؛ لأنه من عمل الجاهلية [1] .

الفائدة الثالثة: أن العلم بأسباب النزول يُيسِّرُ حفظ الآيات، ويسهل فهمها، ويُثَبِّتُ معناها، لأن ربط الأحكام بالحوادث والأشخاص والأزمنة والأمكنة يساعد على استقرار المعلومة وتركيزها، فإذا ارتبط النص بسبب معين كان ذلك أدعى لحفظه وتثبيته في الذهن، وقد أثبتت الدراسات التربوية الحديثة أثر الارتباط الشرطي بين القصة ودليلها في الحفظ والاستذكار.

الفائدة الرابعة: معرفة حكمة الله تعالى على التعيين فيما شرعه بالتنزيل، أو: معرفة الحكمة من تدرج التشريع، وفي ذلك نفع للمؤمن وغير المؤمن، أما المؤمن فيزداد إيمانا على إيمانه ويحرص كل الحرص على تنفيذ أحكام الله والعمل بكتابه لما يتجلى له من المصالح والمزايا التي نيطت بهذه الأحكام ومن أجلها جاء هذا التنزيل

وأما الكافر فتسوقه تلك الحكم الباهرة إلى الإيمان إن كان منصفا حين يعلم أن هذا التشريع الإسلامي قام على رعاية مصالح الإنسان لا على الاستبداد والتحكم والطغيان خصوصا إذا لاحظ سير ذلك التشريع وتدرجه في موضوع واحد،

وحسبنا في ذلك الآيات التي نزلت في تحريم الخمر وتدرجها في الوصول إلى الحكم.([2])

الفائدة الخامسة: أن سبب النزول يوضح من نزلت فيه الآية بعينه، حتى لا تُحمل على غيره بدافع الخصومة والتحامل، مثاله: ما ذكره البخاري قال: ""كان مروان على الحجاز استعمله معاوية، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يُبايَع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئًا فقال: خذوه فدخل بيت عائشة فلم يقدروا. فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه قول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ

([1]) مناهل العرفان، للزرقاني، (١٠٩/١) . محمد عبد العظيم الزُّرْقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة: الطبعة الثالثة.

([2]) السابق، نفس الجزء والصفحة.

حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ [الأحقاف:١٧] فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئًا من القرآن إلا أن الله أنزل عذري([1])

الفائدة السادسة: التأكيد على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فآيات الظهار في مفتتح سورة المجادلة سببها أن أوس بن الصامت ظاهر من زوجته خولة بنت ثعلبة والحكم الذي تضمنته هذه الآيات خاص بهما وحدهما على هذا الرأي، أما غيرهما فيعلم بدليل آخر قياساً، وبدهي أنه لا يمكن معرفة المقصود بهذا الحكم والقياس عليه إلا إذا علم السبب، وبدون معرفة السبب تصير الآيات معطلة خالية الفائدة.([2])

ونخلص من ذلك إلى أن العلم بأسباب النزول له فوائد جمة وآثار عظيمة، منها: التأكيد على أن القرآن الكريم نزل من عند الله تعالى، كما أنها تساعد على فهم الآية ودفع الإشكال عنها، والعلم بها ييسر حفظ الآيات، ويثبت معناها، ويلفت أنظارنا إلى الحكمة من تدرج التشريع، ويوضح من نزلت فيه الآية بعينه، حتى لا تُحمل على غيره بدافع الخصومة والتحامل، وكذلك التأكيد على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

([1]) أخرجه البخاري في صحيحه، ك: تفسير القرآن، باب:" والذي قال لوالديه أف لكما أتعداننني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي"، سورة: حم الأحقاف،

([2]) دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل، (ص٤٦) دار المنار، الطبعة: الثانية ١٤١٩هـ-١٩٩٩م

المبحث الثاني

التعريف بتفسير المنار ومؤلفه

المطلب الأول: التعريف بتفسير المنار

بعد أن استقرَّ المقام برشيد رضا في القاهرة (١٣١٦هـ) – كما سيأتي في الترجمة – وانتهى من إقناع شيخه محمد عبده بضرورة تأسيس مجلة "المنار"، عقد العزم على إقناع أستاذه أن يكتب تفسيراً كاملاً للقرآن الكريم، وكان رشيد رضا في أثناء دروس محمد عبده يدوّن أهم ما يسمعه منه في مذكرات خاصة، ثم بدأ ينشر ما جمعه فيها ابتداءً من أول محرم سنة (١٣١٨هـ) وذلك في المجلد الثالث من مجلة "المنار". ولم يكتف رضا في أثناء حياة شيخه بالنقل عنه، وتدوين أفكاره وآرائه فقط بل كان يضيف إلى كل ذلك زيادات كثيرة، وكان يميز في معظم الأحيان، أقواله عن أقوال محمد عبده، بقوله: "وأقول"، "وأنا أقول"، "وأزيد الآن" وبعد وفاة محمد عبده سنة (١٣٢٣هـ) استقلَّ رشيد رضا بكتابة التفسير، وكان ينوي القيام بتفسيرٍ كامل للقرآن الكريم، ويظهر هذا جلياً من كلامه في نهاية معظم مجلدات تفسيره الإثني عشر، وذلك عندما كان يطلب من الله عزَّ وجلَّ أن يعينه على إتمام هذا التفسير.

فيعتبر تفسير المنار تكملة لما بدأه الشيخ محمد عبده من تفسيره لكتاب الله تعالى، الذي ابتدأ أول القرآن في غرة المحرم سنة ١٣١٧هـ، وانتهى عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً ﴾ [النساء:١٢٦] وذلك في منتصف المحرم سنة ١٣٢٣هـ وكان هذا التفسير على هيئة دروس ألقاها الإمام، فكان الشيخ" رشيد" يقوم بتنقيحها وكتابتها، ثم مراجعتها على الشيخ ونشرها في مجلة المنار، وما إن توفي الشيخ إلا أن أكمل الشيخ"رشيد" هذا التفسير إلى سورة يوسف عند قوله تعالى: ﴿ ربِّ قد آتَيتَني من المُلك وعلَّمتني من تأويلِ الأحاديثِ فاطِرَ السمواتِ والأرضِ أنتَ وليِّ في الدُّنيا والآخرةِ توفَّني مُسلِماً وأَلحِقني بالصالحينَ ﴾ [يوسف:١٠١] ثم عاجلته المنية هو الآخر قبل أن يتم تفسير القرآن كله.

وهذا القدر من التفسير مطبوع في اثني عشر مجلداً كباراً، وينتهي المجلد الثاني عشر عند قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف:٥٣] وقد أكمل الأستاذ "بهجت البيطار" تفسير سور يوسف،

وطبع تفسير هذه السورة بتمامها في كتاب مستقل يحمل اسم الشيخ" رشيد" ـــ رحمه الله.

وقد فسّر الشيخ من القصار:- سورة الكوثر، الكافرون، الإخلاص، المعوذتين ولا يُعرف له إنتاج في التفسير أكثر من هذا.

وفي هذا التفسير تتجلى روح الأستاذ الإمام ممزوجة بروح تلميذه، فالمصادر هي المصادر والهدف هو الهدف، والمنهج هو المنهج، والأفكار هي الأفكار، ولا فرق بين الرجلين إلا فيما هو قليل ونادر(١)

وقد ذكر ذلك في مقدمة تفسيره حينما قال: وإنني لما استقللت بالعمل بعد وفاته خالفت منهجه رحمه الله تعالى بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة، سواء كان تفسيراً لها أو في حكمها، وفي تحقيق بعض المفردات، أو الجمل اللغوية، والمسائل الخلافية بين العلماء، وفي الإكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة، وفي بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها بما يثبتهم بهداية دينهم في هذا العصر، أو يقوي حجتهم على خصومه من الكفار والمبتدعة، أو يحل بعض المشكلات التي أعيا حلها بما يطمئن به القلب وتسكن إليه النفس(٢)

والناظر في تفسير المنار: يدرك لأول وهلة يسر عبارة الشيخ وسهولة أسلوبه، ولا عجب في ذلك، فقد أعطى حظاً وافراً في فن الكتابة، لذا ظهر على تفسيره طابع الأسلوب الأدبي الاجتماعي، وإلى جانب هذا كله مادة علمية غزيرة، يظهر من خلالها التحقيق، وإذا كان بعض الناس قد منحه الله قوة في التعبير وكان بعيداً عن الجو العلمي،. وبعضهم على العكس تماماً، فإن" رشيداً" قد من الله عليه بهما مجتمعين، ويظهر هذا في التفسير بكل جلاء ووضوح(٣)

(١) التفسير والمفسرون، لمحمد حسين الذهبي، (٥٠٧/٢)، مكتبة وهبه، القاهرة.

(٢) تفسير المنار، (١٦/١).

(٣) المفسرون مدارسهم ومناهجهم، (١٠١/١)، فضل حسن عباس، ط دار النفائس،الأردن، سنة ١٤٢٧هـ ٢٠٠٧م .

المطلب الثاني: التعريف بالمؤلف

هو محمد رشيد بن على رضا بن محمد شمس الدين بن بهاء الدين بن منلا خليفة البغدادي الحسيني النسب، إمام كبير فقيه قريب من مذهب السلف؛ لأنه تأثر بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله –.

ولد في٢٧ جمادي الأولى سنة ١٢٨٢هـ – ١٨٦٥م في قرية تسمى" القلمون" على شاطئ البحر المتوسط تبعد عن مدينة طرابلس والشام زهاء ثلاثة أميال (١)

نشأ الشيخ رشيد في هذه القرية التي اشتهر أهلها بالشرف، وحسن السيرة، وبقلة ظهور المنكر بينهم، مع حسن اعتدال مناخها، وأسرة الشيخ أسرة رشيدة، ذات شرف ومكانة وكرامة ودين وتقوى، وعزة نفس بين أهل هذه القرية، وكان له أثر كبير فيه، فقد كان والد الشيخ رشيد شيخاً للقلمون، وإماماً لمسجدها، وكان قد بدأ في طلب العلم في طرابلس على يد الشيخ "محمود نشابه" ثم لم يلبث أن انقطع عن ذلك لحاجة والده إليه، وتوفي والد الشيخ "رشيد" في رجب سنة ١٣٢٣هـ – سبتمبر ١٩٠٥م، ووالدة الشيخ رشيد اسمها: فاطمة، وتنسب إلى البيت النبوي من جهة الأب، والأم، ويكثر الشيخ رشيد من الثناء عليها، وقد توفيت بمصر سنة ١٣٥٠هـ – سنة ١٩٣١م ونشأ الشيخ "رشيد" في هذه البيئة على محاسن الأخلاق فكان حييًّا متعبداً، متنسكاً، مواظباً على قراءة القرآن والأذكار، ونظم الشعر في صباه، وكتب في بعض الصحف(٢)

فعُني الأب بتربية ولده وتعليمه، فحفظ القرآن الكريم، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب، ثم انتقل إلى طرابلس، ودخل المدرسة الرشيدية الابتدائية، وظل بها عامًا، ثم تركها إلى المدرسة الوطنية الإسلامية بطرابلس سنة (١٢٩٩هـ = ١٨٨٢م)، وكانت أرقى من المدرسة السابقة، والتعليم فيها بالعربية، وتهتم بتدريس العلوم العربية والشرعية والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية، ولم تطل الحياة بتلك المدرسة فسرعان ما أُغلقت أبوابها ، وتفرّق طلابها في المدارس الأخرى ، غير أن رشيد رضا

(١) الأعلام، لخير الدين الزركلي، (١٢٦/٦)، ط. دار العلم للملاين– ط الخامسة عشر – مايو سنة ٢٠٠٢م، المجددون في الإسلام من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر، (ص ٥٣٩)، لعبد المتعال الصعيدي ط مكتبة التراث، منهج الشيخ رشيد رضا في العقيدة، (٥٩/١)٠

(٢) الإعلام للزركلي، (١٢٦/٦)، منهج الشيخ رشيد رضا في العقيدة (ص ٦٠، ٦١)، نقلاً عن مجلة المنار/ لتامر محمد محمود متولي ط الأولى سنة ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م ٠

توثقت صلته بالشيخ الجسر ، واتصل بحلقاته ودروسه ، ووجد الشيخ الجسر في تلميذه نباهة وفهمًا ، فآثره برعايته وأولاه عنايته ، فأجازه سنة (١٣١٤هـ = ١٨٩٧م) بتدريس العلوم الشرعية والعقلية والعربية ، وفي الوقت نفسه درس (رشيد رضا) الحديث على يد الشيخ (محمود نشابة) وأجازه أيضًا برواية الحديث، كما واظب على حضور دروس نفر من علماء طرابلس، مثل: الشيخ عبد الغني الرافعي، ومحمد القاوجي، ومحمد الحسيني، وغيرهم .

الاتصال بالأستاذ الإمام :

في الفترة التي كان يتلقى فيها رشيد رضا دروسه في طرابلس كان الشيخ محمد عبده قد نزل بيروت للإقامة بها، وكان محكومًا عليه بالنفي بتهمة الاشتراك في الثورة العرابية، وقام بالتدريس في المدرسة السلطانية ببيروت، وإلقاء دروسه التي جذبت طلبة العلم بأفكاره الجديدة ولمحاتة الذكية، وكان الشيخ محمد عبده قد أعرض عن السياسة، ورأى في التربية والتعليم سبيل الإصلاح وطريق الرقي، فركز جهده في هذا الميدان.

وكان التلميذ النابه شديد الإعجاب بشيخه، حريصًا على اقتفاء أثره في طريق الإصلاح، غير أن الفرصة سنحت له على استحياء، فالتقى بالأستاذ الإمام مرتين في طرابلس حين جاء إلى زيارتها؛ تلبية لدعوة كبار رجالها، وتوثقت الصلة بين الرجلين، وازداد تعلق رشيد رضا بأستاذه.

وحاول رشيد رضا الاتصال بجمال الدين الأفغاني والالتقاء به، لكن جهوده توقفت عند حدود تبادل الرسائل وإبداء الإعجاب.

لم يجد رشيد رضا مخرجًا له في العمل في ميدان أفسح للإصلاح سوى الهجرة إلى مصر والعمل مع محمد عبده تلميذ الأفغاني حكيم الشرق، فنزل الإسكندرية ثم بعد أيام إلى القاهرة، ولم يكد يمضي شهر على نزوله القاهرة حتى صارح شيخه بأنه ينوي أن يجعل من الصحافة ميدانًا للعمل الإصلاحي، ودارت مناقشات طويلة بين الإمامين الجليلين حول سياسة الصحف وأثرها في المجتمع، وأقنع التلميذ النجيب شيخه بأن الهدف من إنشائه صحيفة هو التربية والتعليم، ونقل الأفكار الصحيحة لمقاومة الجهل والخرافات والبدع ، وأنه مستعد للإنفاق عليها سنة أو سنتين دون انتظار ربح منها.

وكان (رحمه الله) متعدد الجوانب والمواهب، فكان مفكرًا إسلاميًا غيورًا على دينه، وصحفيًا نابهًا ينشئ مجلة (المنار) ذات الأثر العميق في الفكر الإسلامي ، وكاتبًا بليغًا في كثير من الصحف ، ومفسرًا نابغًا ، ومحدثًا متقنًا في طليعة محدثي العصر ، وأديبًا لغويًا ، وخطيبًا مفوهًا، ومربيًا ومعلمًا يروم الإصلاح ويبغي التقدم لأمة .

وخلاصة القول: إنه كان واحدًا من رواد الإصلاح الإسلامي الذين بزغوا في مطلع القرن الرابع عشر الهجري، وعملوا على النهوض بأمتهم.

مؤلفاته

من أهم مؤلفاته (تفسير المنار) الذي استكمل فيه ما بدأه شيخه محمد عبده الذي توقف عند الآية (١٢٥) من سورة النساء، وواصل رشيد رضا تفسيره حتى بلغ سورة يوسف، وحالت وفاته دون إتمام تفسيره، وهو من أجل التفاسير، وله أيضًا: الوحي المحمدي، وتاريخ الأستاذ الإمام والخلافة، والسنة والشيعة، وحقيقة الربا، ومناسك الحج.

وفاته: توفي الشيخ" رضا" رحمه الله وفاضت روحه إلى بارئها من وداع الأمير "سعود بن عبد العزيز" في ميناء السويس في طريقه إلى القاهرة في يوم الخميس ٢٣ جمادي الأولى سنة ١٣٥٤هـ – ٢٢ أغسطس سنة ١٩٣٥م، ودفن بجوار شيخه "محمد عبده" في مقابر المجاورين بالأزهر(١)

(١) الأعلام، للزركلي، (٢٦/٦)، مجلة المنار، (عدد ٣٥ ص ١٥٤) .

المبحث الثالث

نظرة صاحب المنار لأسباب النزول

لصاحب المنار نظرة في أسباب النزول تختلف عن كثير من المفسرين، فقد كان يناقش روايات أسباب النزول، وينتقد كثيراً منها، وفي الصفحات التالية نعرض لمناقشاته وانتقاداته لتلك الروايات، وحتى لا يطول بنا المقام نكتفي بذكر عدة نماذج نستوضح منها نظرته لتلك الروايات.

أولا: اعتراضه على سبب نزول الآيات الذي يسوقه بعض المفسرين، وبيانه أن هذا الاعتراض قائم على وحدة السورة وترابطها.

فمن خلال تتبع الآيات القرآنية وأسباب نزولها عند الإمام رشيد رضا، نجد أن الإمام لم يكن له منهجاً محدداً، ولكن اختلف منهجه في كل آية على حسب ما يقتضيه معرفة سبب النزول، وأول ما يطالعنا من خلال تتبع أسباب نزول الآيات عنده، نجده يعترض على سبب النزول اعتراضاً قائماً على الوحدة العضوية للآيات، أو على قضية متعلقة بفهم النص القرآني، الفهم المتعلق بسياق الآيات وتناسق هذا السياق وترابطه.

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣]

فقد انتقد رشيد رضا رواة أسباب النزول عند حديثه عن تفسير هذه الآية، فقال: وَمِنْ عَجِيبِ شَأْنِ رُوَاةِ أَسْبَابِ النُّزُولِ أَنَّهُمْ يُمَزِّقُونَ الطَّائِفَةَ الْمُلْتَئِمَةَ مِنَ الْكَلَامِ الْإِلَهِيِّ وَيَجْعَلُونَ الْقُرْآنَ عِضِينَ مُتَفَرِّقَةً، بِمَا يُفَكِّكُونَ الْآيَاتِ وَيَفْصِلُونَ بَعْضَهَا مِنْ بَعْضٍ، وَبِمَا يَفْصِلُونَ بَيْنَ الْجُمَلِ الْمُوثَقَةِ فِي الْآيَةِ الْوَاحِدَةِ، فَيَجْعَلُونَ لِكُلِّ جُمْلَةٍ سَبَبًا مُسْتَقِلًّا، كَمَا يَجْعَلُونَ لِكُلِّ آيَةٍ مِنَ الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِي مَسْأَلَةٍ وَاحِدَةٍ سَبَبًا مُسْتَقِلًّا، انْظُرْ هَذِهِ الْآيَاتِ تَجِدُ إِعْجَازَهَا فِي بَلَاغَةِ الْأُسْلُوبِ أَنْ مَهَّدَتْ لِلْأَمْرِ بِتَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ مَا يُشْعِرُ بِهِ فِي ضِمْنِ حِكَايَةِ شُبْهَةِ الْمُعْتَرِضِينَ الَّتِي سَتَقَعُ مِنْهُمْ، وَبِتَوْهِينِ هَذِهِ الشُّبْهَةِ بِإِسْنَادِهَا إِلَى السُّفَهَاءِ مِنَ النَّاسِ وَإِيرَادِهَا مُجْمَلَةً، وَبِوَصْلِهَا بِالدَّلِيلِ عَلَى فَسَادِهَا، وَبِذِكْرِ هِدَايَةِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي لَا الْتِوَاءَ فِيهِ وَلَا اعْوِجَاجَ، وَلَا تَفْرِيطَ عِنْدَ سَالِكِيهِ وَلَا إِفْرَاطَ، وَبِذِكْرِ مَكَانَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِدِينِهَا، وَاعْتِدَالِهَا فِي جَمِيعِ أَمْرِهَا، وَبِبَيَانِ الْحِكْمَةِ فِي جَعْلِ الْقِبْلَةِ الْأُولَى قِبْلَةً ثُمَّ التَّحْوِيلِ عَنْهَا،

وَبِالتَّلَطُّفِ فِي الْإِخْبَارِ عَمَّا سَيَكُونُ مِنَ ارْتِدَادِ بَعْضِ مَنْ يَدَّعُونَ الْإِيمَانَ عَنْ دِينِهِمُ افْتِتَانًا بِالتَّحْوِيلِ وَجَهْلًا بِالْأَمْرِ، إِذْ أَوْرَدَ الْخَبَرَ فِي سِيَاقِ بَيَانِ الْحِكْمَةِ حَتَّى لَا يَعْظُمَ وَقْعُهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَبِبَيَانِ أَنَّ الْمَسْأَلَةَ كَبِيرَةٌ عَلَى غَيْرِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ بِالْهِدَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي سَبَقَ ذِكْرُهَا، وَهِيَ الْإِيمَانُ الْكَامِلُ بِمَعْرِفَةِ دَلَائِلِ الْمَسَائِلِ وَحِكَمِ الْأَحْكَامِ، ثُمَّ بِتَبْشِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُهْتَدِينَ الثَّابِتِينَ عَلَى اتِّبَاعِ الرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِإِثَابَةِ اللهِ إِيَّاهُمْ بِرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ.

وَبَعْدَ هَذَا كُلِّهِ أَمَرَهُ بِالتَّحَوُّلِ أَمْرًا صَرِيحًا كَمَا سَيَأْتِي فِي تَفْسِيرِ بَقِيَّةِ الْآيَاتِ. أَفَيَصِحُّ فِي مِثْلِ هَذَا السِّيَاقِ الْمُوثَقِ بَعْضُ جُمَلِهِ وَآيَاتِهِ بِبَعْضٍ أَنْ نَفُكَّ وَثَاقَهُ وَيُجْعَلُ نُتَفًا نُتَفًا، وَيُقَالُ: إِنَّ كُلَّ جُمْلَةٍ مِنْهُ نَزَلَتْ لِحَادِثَةٍ حَدَثَتْ، أَوْ كَلِمَةٍ قِيلَتْ، وَإِنْ أَدَّى ذَلِكَ إِلَى قَلْبِ الْوَضْعِ، وَجَعْلِ الْأَوَّلِ آخِرًا وَالْآخِرِ أَوَّلًا، وَجَعْلِ آيَاتِ التَّمْهِيدِ مُتَأَخِّرَةً فِي النُّزُولِ عَنْ آيَاتِ الْمَقْصِدِ؟ أَتَسْمَحُ لَنَا اللُّغَةُ وَالدِّينُ بِأَنْ نَجْعَلَ الْقُرْآنَ عِضِينَ ؛ لِأَجْلِ رِوَايَاتٍ رُوِيَتْ وَإِنْ قِيلَ: إِنَّ إِسْنَادَ بَعْضِهَا قَوِيٌّ بِحَسَبِ مَا عُرِفَ مِنْ تَارِيخِ الرُّوَاةِ؟!([1])

ومن هذا النص نفهم أنه لا يوافق رواة أسباب النزول على جعلهم هذه الروايات مبينة لمعنى الآية أو موضحة له، بل إنه يناقش السبب والمعنى العام للآية بسياقها، وذلك بضميمة بعضهما إلى بعض، ويتوصل إلى عدم التسليم ببيان سبب النزول هنا لمعنى الآية أو توضيحه له، إذ إنه بالنظر في معنى الآية وسياقها هي والآيات المجاورة لها، وفيما تقرره رواية سبب النزول ندرك أنها تفك الترابط بين أجزاء الآية الواحدة، كما تفك الترابط بينها وبين الآيات المتجاورة.

ثانياً: استدراك الإمام لأسباب النزول التي ساقها بعض المفسرين مع التعقيب عليها بما يتوافق مع الآية، وبيان ذلك كما يلي:

يلحظ القارئ الجيد لكتاب المنار أن الإمام رشيد رضا يختلف مع بعض المفسرين في عدم اعتباره لسبب النزول في بيان المعنى العام للآية، ثم يعرض وجهة نظره في ضرورة الاعتبار بالسبب، خاصة حينما يساهم السبب في بيان المعنى العام، والتأكيد على وحدة الآيات وترابطها، ويعقب على أقوال المخالفين من خلال فهمه

(١) تفسير المنار (٢/ ١٠)

للنص القرآني، بما يقوي فكرة وحدة الآيات وترابطها، كما جاء في المثال التالي من الدراسة.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:١٦٨]

قال الإمام في سبب نزول الآية.

ذَكَرَ (الْجَلَالُ)(١) أَنَّ الْآيَةَ الْأُولَى نَزَلَتْ فِيمَنْ حَرَّمَ السَّوَائِبَ وَنَحْوَهَا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ، وَقَدْ كَانَ هَذَا فِي طَوَائِفَ مِنَ الْعَرَبِ كَمُدْلِجٍ وَبَنِي صَعْصَعَةَ. وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ(٢): لَوْ صَحَّ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ لَمَا كَانَ مُقْتَضِيًا فَصْلَ الْآيَةِ مِمَّا قَبْلَهَا وَجَعْلَهَا كَلَامًا مُسْتَأْنَفًا؛ لِأَنَّ الْعِبْرَةَ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ، عَلَى أَنَّ الظَّاهِرَ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّ الْكَلَامَ مُتَّصِلٌ بِمَا قَبْلَهُ أَتَمَّ الِاتِّصَالِ، فَإِنَّ الْآيَاتِ الْأُولَى بَيَّنَتْ حَالَ مُتَّخِذِي الْأَنْدَادِ وَمَا سَيُلَاقُونَ مِنْ عَذَابِ اللهِ تَعَالَى، ... وَأَنَّ النَّاسَ يَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي ذَلِكَ، وَأَنْ سَيَتَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا عِنْدَ رُؤْيَةِ الْعَذَابِ وَتَقَطُّعِ الْأَسْبَابِ بَيْنَهُمْ، وَقُلْنَا فِي تَفْسِيرِهَا: إِنَّ الْأَسْبَابَ هِيَ الْمَنَافِعُ الَّتِي يَجْنِيهَا الرُّؤَسَاءُ مِنَ الْمَرْءُوسِينَ وَالْمَصَالِحُ الدُّنْيَوِيَّةُ الَّتِي تَصِلُ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ. وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ يُبَيِّنُ تَعَالَى أَنَّ تِلْكَ الْأَسْبَابَ مُحَرَّمَةٌ ؛ لِأَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى أَكْلِ الْخَبَائِثِ وَإِتِّبَاعِ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَنَهَى عَنْهَا، وَبَيَّنَ سَبَبَ جُمُودِهِمْ عَلَى الْبَاطِلِ وَالضَّلَالِ وَهُوَ الثِّقَةُ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْآبَاءُ مِنْ غَيْرِ عَقْلٍ وَلَا هُدًى. فَالْكَلَامُ مُتَمِّمٌ لِمَا قَبْلَهُ قَطْعًا.(٣)

ومن هذا النص للإمام ندرك أنه لا يوافق (الْجَلَالُ) على وجهة نظره في سبب النزول الذي ساقه؛ لأنه لم يستفد من سبب النزول في بيان المعنى العام للآية، ويساهم في التأكيد على وحدة الآيات وترابطها، ويعقب عليه مستدلا ببيان ما ترمي إليه الآيات، ومساهمة هذا السبب في إبراز المعنى، ووحدة الآيات وترابطها.

---

(١) يقصد عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي المفسر المعروف، في تفسير الجلالين، لجلال الدين محمد بن أحمد المحلي، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، (٣٤/١)، دار الحديث، القاهرة، الطبعة: الأولى.

(٢) يقصد الإمام محمد عبده.

(٣) تفسير المنار (٢/ ٧٠)

ثالثاً: انتقاد الإمام لسبب النزول الذي يسوقه بعض المفسرين، ومناقشته لألفاظ الرواية، مبيناً عدم موافقتها لحدث الآية الحقيقي وقصتها وسياقها وترابطها.

ومن أمثلة ذلك ما ذكره في تفسيره للآيات التالية:

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ* يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:٢١٦-٢١٨]

قال الإمام في هذه الآيات:

أَخْرَجَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَالطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ، والْبَيْهَقِيُّ فِي سُنَنِهِ مِنْ طَرِيقِ زَيْدِ بْنِ رُومَانَ، عَنْ عُرْوَةَ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَبْدَ اللهِ بْنَ جَحْشٍ – وَهُوَ ابْنُ عَمَّتِهِ – فِي ثَمَانِيَةٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فِي رَجَبٍ مَقْفَلَهِ مِنْ بَدْرٍ الْأُولَى، وَكَتَبَ لَهُ كِتَابًا يُعْلِمُهُ فِيهِ أَيْنَ يَسِيرُ، فَقَالَ: ((اخْرُجْ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ حَتَّى إِذَا سِرْتَ يَوْمَيْنِ فَافْتَحْ كِتَابَكَ فَانْظُرْ فِيهِ فَمَا أَمَرْتُكَ بِهِ فَامْضِ لَهُ، وَلَا تَسْتَكْرِهْ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِكَ عَلَى الذَّهَابِ مَعَكَ)) فَلَمَّا سَارَ يَوْمَيْنِ فَتَحَ الْكِتَابَ فَإِذَا فِيهِ: أَنِ امْضِ حَتَّى تَنْزِلَ نَخْلَةَ فَأْتِنَا مِنْ أَخْبَارِ قُرَيْشٍ بِمَا اتَّصَلَ إِلَيْكَ مِنْهُمْ، وَلَمْ يَأْمُرْهُ بِقِتَالٍ. فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ – وَكَانُوا ثَمَانِيَةً – حِينَ قَرَأَ الْكِتَابَ: سَمْعًا وَطَاعَةً، مَنْ كَانَ مِنْكُمْ لَهُ رَغْبَةٌ فِي الشَّهَادَةِ فَلْيَنْطَلِقْ مَعِي فَأَنَا مَاضٍ لِأَمْرِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَمَنْ كَرِهَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلْيَرْجِعْ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَدْ نَهَانِي أَنْ أَسْتَكْرِهَ مِنْكُمْ أَحَدًا، فَمَضَى الْقَوْمُ مَعَهُ حَتَّى كَانُوا بِنَجْرَانَ أَضَلَّ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ وَعُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ بَعِيرًا لَهُمَا كَانَا يَتَعَقَّبَانِهِ فَتَخَلَّفَا عَلَيْهِ يَطْلُبَانِهِ، وَمَضَى الْقَوْمُ حَتَّى نَزَلُوا نَخْلَةَ، فَمَرَّ بِهِمْ عَمْرُو بْنُ الْحَضْرَمِيِّ وَالْحَكَمُ بْنُ كَيْسَانَ وَعُثْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُغِيرَةِ وَأَخُوهُ نَوْفَلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَأَشْرَفَ لَهُمْ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ – وَكَانَ قَدْ حَلَقَ رَأْسَهُ – فَلَمَّا رَأَوْهُ حَلِيقًا قَالُوا: عُمَّارٌ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ مِنْهُمْ بَأْسٌ، وَأْتَمَرَ بِهِمْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –

وَكَانَ آخِرَ يَوْمٍ مِنْ جُمَادَى، فَقَالُوا: لَئِنْ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَتَقْتُلُونَهُمْ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، وَلَئِنْ تَرَكْتُمُوهُمْ لَيَدْخُلُنَّ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ الْحَرَمَ فَلَيَمْتَنِعُنَّ مِنْكُمْ، فَأَجْمَعَ الْقَوْمُ عَلَى قَتْلِهِمْ، فَرَمَى وَاقِدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ السَّهْمِيُّ عَمْرَو بْنَ الْحَضْرَمِيِّ بِسَهْمٍ فَقَتَلَهُ، وَاسْتَأْسَرَ عُثْمَانَ بْنَ عَبْدِ اللهِ وَالْحَكَمَ بْنَ كَيْسَانَ، وَأَفْلَتَ نَوْفَلُ وَأَعْجَزَهُمْ، وَاسْتَاقُوا الْعِيرَ فَقَدِمُوا بِهَا عَلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَ لَهُمْ: ((وَاللهِ مَا أَمَرْتُكُمْ بِقِتَالٍ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ)) فَأَوْقَفَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الْأَسِيرَيْنِ وَالْعِيرَ فَلَمْ يَأْخُذْ مِنْهَا شَيْئًا، فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مَا قَالَ: سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ (أَيْ نَدِمُوا) وَظَنُّوا أَنْ قَدْ هَلَكُوا، وَعَنَّفَهُمْ إِخْوَانُهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَقَالَتْ قُرَيْشٌ حِينَ بَلَغَهُمْ أَمْرُ هَؤُلَاءِ: قَدْ سَفَكَ مُحَمَّدٌ الدَّمَ الْحَرَامَ، وَأَخَذَ الْمَالَ وَأَسَرَ الرِّجَالَ، وَاسْتَحَلَّ الشَّهْرَ الْحَرَامَ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ) الْآيَةَ، فَأَخَذَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الْعِيرَ وَفَدَى الْأَسِيرَيْنِ. (١)

وَفِي رِوَايَةِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ: ((أَنَّهُ لَمَّا بَلَغَ كُفَّارَ قُرَيْشٍ تِلْكَ الْفَعْلَةُ رَكِبَ وَفْدٌ مِنْهُمْ حَتَّى قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالُوا: أَيَحِلُّ الْقِتَالُ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ)) ؟ فَنَزَلَتْ. هَكَذَا أَوْرَدَ الْقِصَّةَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ، وَقَوْلُهُ فِي صَدْرِهَا: ((فِي رَجَبٍ إِلَخْ)) يَخْتَلِفُ مَعَ قَوْلِهِ بَعْدُ: ((وَكَانَ آخِرَ يَوْمٍ مِنْ جُمَادَى)) وَذَكَرُوا أَنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ كَانَتْ قَبْلَ غَزْوَةِ بَدْرٍ بِشَهْرَيْنِ وَبَعْدَ الْهِجْرَةِ بِسَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا.

وَأَخْرَجَهَا السُّيُوطِيُّ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ عَمَّنْ ذَكَرَ مَا عَدَا ابْنَ إِسْحَاقَ مِنْ حَدِيثِ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ مُخْتَصَرَةً، وَقَالَ: إِنَّهُمْ قَتَلُوا ابْنَ الْحَضْرَمِيِّ وَلَمْ يَدْرُوا أَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ مِنْ رَجَبٍ أَوْ مِنْ جُمَادَى، وَقَالَ فِي آخِرِهَا: فَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنْ لَمْ يَكُونُوا أَصَابُوا وِزْرًا فَلَيْسَ لَهُمْ أَجْرٌ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾... الْآيَةَ، وَمَشَى عَلَى ذَلِكَ فِي التَّفْسِيرِ.

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: إِنَّ كَلَامَهُ يُفِيدُ أَنَّ الْآيَاتِ نَزَلَتْ مُتَفَرِّقَةً، وَالصَّوَابُ أَنَّ الْآيَاتِ الثَّلَاثَ نَزَلَتْ فِي قِصَّةٍ وَاحِدَةٍ مَرَّةً وَاحِدَةً.(٢)

---

(١) أخرجها الزيلعي في كتاب: تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف، للزمخشري، ك: تفسير سورة البقرة، (١/١٣٠)، وقال عنه: رواه الواحدي في أسباب النزول بسنده إلى عروة بن الزبير.

(٢) تفسير المنار (٢/ ٢٤٧،٢٤٨)

وبالتأمل في هذا النص الذي ذكره الإمام يتضح لنا أنه ينتقد السيوطي في سوقه هذه الرواية سبباً للنزول دون النظر فيها، وما تتضمنه من معنى، مبيناً أن بعض ألفاظها لا يتوافق مع بعضها الآخر، فكيف تعتمد هذه الرواية سبباً للنزول، إضافة إلى أن اعتمادها سبباً للنزول يعطينا انطباعاً أن الآيات الثلاث نزلت متفرقة، بينما الواقع أنها نزلت في قصة واحدة مرة واحدة، وهو بهذا يؤكد على أن الروايات في أسباب النزول ينبغي ألا تفت في عضد وحدة الآيات وترابطها.

رابعاً: انتقاد الإمام لبعض المفسرين لإيرادهم سببين للنزول، كل سب منهما لجزء معين من الآية، وهذا عنده باطل؛ لأنه يؤدي إلى تجزئة الآية الواحدة.

ومن أمثلة ذلك ما ذكره في تفسيره للآية التالية:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١]

أَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَالْوَاحِدِيُّ عَنْ مُقَاتِلٍ قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي ابْنِ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيِّ اسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي ((عَنَاقٍ)) أَنْ يَتَزَوَّجَهَا وَهِيَ مُشْرِكَةٌ وَكَانَتْ ذَاتَ حَظٍّ مِنْ جَمَالٍ فَنَزَلَتْ. يَعْنِي (وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ) ذَكَرَ ذَلِكَ السُّيُوطِيُّ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ، ثُمَّ قَالَ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ) الْآيَةَ. أَخْرَجَ الْوَاحِدِيُّ مِنْ طَرِيقِ السُّدِّيِّ عَنْ أَبِي مَالِكٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي عَبْدِ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ سَوْدَاءُ وَأَنَّهُ غَضِبَ عَلَيْهَا فَلَطَمَهَا، ثُمَّ إِنَّهُ فَزِعَ فَأَتَى النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَأَخْبَرَهُ وَقَالَ: لَأُعْتِقَنَّهَا وَلَأَتَزَوَّجَنَّهَا. ففَعَلَ، فَطَعَنَ عَلَيْهِ نَاسٌ وَقَالُوا: يَنْكِحُ أَمَةً! فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ، وَأَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ السُّدِّيِّ مُنْقَطِعًا.

وَظَاهِرُهُ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: (وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ) إِلَى (أَعْجَبَتْكُمْ) آيَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ نَزَلَتْ فِي حَادِثَةٍ غَيْرِ الْحَادِثَةِ الَّتِي أُنْزِلَ فِيهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ) وَهَذَا الظَّاهِرُ مِنْ صَنِيعِهِ خَفِيٌّ فِي نَفْسِهِ بَلْ هُوَ بَاطِلٌ أَلْبَتَّةَ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْآيَةَ وَاحِدَةٌ، نَزَلَتْ مَرَّةً وَاحِدَةً

عِنْدَ حَاجَةِ النَّاسِ إِلَى بَيَانِ أَحْكَامِهَا، وَلَا مَانِعَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بَعْدَ حُدُوثِ مَا رُوِيَ عَنْ أَبِي مَرْثَدٍ وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ.(١)

فالإمام هنا ينتقد بعض المفسرين لسوقهم سببين للنزول، كل سبب منهما لجزء من الآية، مبيناً بطلان ذلك؛ لأنه يفهم منهما أن الآية نزلت على جزأين، وهذا – من وجهة نظره – مرفوض، والذي يمكن قبوله أن الآية نزلت بعد الحادثتين. (٢)

خامساً: الإمام يورد عدة روايات في أسباب النزول، ويناقشها ويعتمد الصحيح منها سبباً، ويجعل الروايات الأخرى مفسرة وشارحة للآية.

قال تعالى:" أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجِّ وَعِمَارَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ" [التوبة:١٩]

قال صاحب المنار: وَرَوَى أَبُو جَعْفَرِ بْنُ جَرِيرٍ عَنْ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ قَالَ: افْتَخَرَ طَلْحَةُ بْنُ شَيْبَةَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، وَعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ – فَقَالَ طَلْحَةُ: أَنَا صَاحِبُ الْبَيْتِ مَعِي مِفْتَاحُهُ، وَلَوْ أَشَاءُ بِتُّ فِيهِ. وَقَالَ الْعَبَّاسُ: أَنَا صَاحِبُ السِّقَايَةِ وَالْقَائِمُ عَلَيْهَا وَلَوْ أَشَاءُ بِتُّ فِي الْمَسْجِدِ. فَقَالَ عَلِيٌّ ــ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ــ: مَا أَدْرِي مَا تَقُولَانِ، لَقَدْ صَلَّيْتُ إِلَى الْقِبْلَةِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ قَبْلَ النَّاسِ وَأَنَا صَاحِبُ الْجِهَادِ. فَأَنْزَلَ اللهُ: أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ الْآيَةَ كُلَّهَا.(٣) فَهَذِهِ الرِّوَايَاتُ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ وَقَائِعُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ أَسْبَابًا.

وَالْمُعْتَمَدُ مِنْ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ حَدِيثُ النُّعْمَانِ؛ لِصِحَّةِ سَنَدِهِ وَمُوَافَقَةِ مَتْنِهِ لِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَاتُ مِنْ كَوْنِ مَوْضُوعِهَا فِي الْمُفَاضَلَةِ أَوِ الْمُسَاوَاةِ بَيْنَ خِدْمَةِ الْبَيْتِ وَحُجَّاجِهِ – مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ الْبَدَنِيَّةِ الْهَيِّنَةِ الْمُسْتَلَذَّةِ – وَبَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْجِهَادِ بِالْمَالِ وَالنَّفْسِ وَالْهِجْرَةِ وَهِيَ أَشَقُّ الْعِبَادَاتِ النَّفْسِيَّةِ الْبَدَنِيَّةِ الْمَالِيَّةِ، وَالْآيَاتُ تَتَضَمَّنُ الرَّدَّ عَلَيْهَا كُلَّهَا. وَفِي أَثَرِ عَلِيٍّ أَنَّ الْعَبَّاسَ ذَكَرَ حِجَابَةَ الْبَيْتِ، وَهِيَ لَمْ تَكُنْ لَهُ دُونَ السِّقَايَةِ الَّتِي كَانَتْ لَهُ، وَأَثَرُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِيهِ تَقَدَّمَ مَعْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ.(٤)

---

(١) تفسير المنار (٢/ ٢٧٦)

(٢) ومن أمثلته كذلك ما ورد في تفسير الآية رقم (٢٣١) من سورة البقرة، تفسير المنار (٢/ ٣١٤)

(٣) أخرجه الألباني في سلسلته الضعيفة، حديث رقم: (٤٩٢٦)، (١٠/٤٣٠)، وأثبت ضعفه.

(٤) تفسير المنار(١٠/١٩٥)

فقد أورد الإمام عدة روايات في أسباب نزول الآية – كما عند المفسرين –، لكنه لا يسلم بسببيتها، بل يناقشها ويعتمد الصحيح منها سبباً، ويجعل الروايات الأخرى وقائع في تفسير الآية، مفسرة وشارحة لها.(١)

سادساً: الإمام يورد الروايات ويجمع بينها، وينتقد تساهل بعض المفسرين في أسباب النزول، وإقحام بعض الروايات في غير موضعها.

قال تعالى: "وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ" [التوبة:٥٨،٥٩]

كَانَ الْمُنَافِقُونَ يَرْتَقِبُونَ الْفُرَصَ لِلصَّدِّ عَنِ الْإِسْلَامِ بِالطَّعْنِ عَلَى النَّبِيِّ ــ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ــ بِالشُّبَهِ الَّتِي يَظُنُّونَ أَنَّهَا تُوقِعُ الرَّيْبَ فِي قُلُوبِ ضُعَفَاءِ الْإِيمَانِ مِنَ الْجَانِبِ الَّذِي يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ وَقَدْ كَانَ مِنْهَا قِسْمَةُ الصَّدَقَاتِ وَالْغَنَائِمِ. رَوَى الْبُخَارِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَمُصَنِّفُو التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ــ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ــ قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ــ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ــ يَقْسِمُ قَسَمًا إِذْ جَاءَهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ التَّمِيمِيُّ فَقَالَ: اعْدِلْ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: " وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟ " فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ــ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ــ: ائْذَنْ لِي فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ــ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ــ: " دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ " الْحَدِيثَ بِطُولِهِ. قَالَ (أَبُو سَعِيدٍ) فَنَزَلَتْ فِيهِمْ: وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ الْآيَةَ.(٢) وَرَوَى ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ــ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ــ قَالَ: لَمَّا قَسَمَ النَّبِيُّ ــ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ــ غَنَائِمَ حُنَيْنٍ سَمِعْتُ رَجُلًا يَقُولُ: إِنَّ هَذِهِ قِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللهِ: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ فَذَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ فَقَالَ: " رَحْمَةُ اللهِ عَلَى مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ " وَنَزَلَ: وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ. (٣)وَرَوَى سُنَيْدٌ وَابْنُ جَرِيرٍ عَنْ دَاوُدَ بْنِ أَبِي عَاصِمٍ قَالَ: أُتِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِصَدَقَةٍ فَقَسَّمَهَا

---

(١) ومن ذلك أيضاً ماذكره عند تفسير الآية رقم (٧٥) من سورة الأنفال، تفسير المنار(١٣١/١٠)

(٢) صحيح البخاري من طريق أبي سعيد الخدري، ك: استتابة المرتدين، باب: من ترك قتال الخوارج للتألف ولئلا ينفر الناس عنه، حديث رقم: (٦٥٣٤)، (٢٥٤٠/٦)

(٣) صحيح البخاري من طريق أنس بن مالك، ك: أبواب العمرة، باب: كم اعتمر النبي – صلى الله عليه وسلم –، حديث رقم: (١٦٨٨)، (٦٣١/٢)

هَاهُنَا وَهَاهُنَا حَتَّى ذَهَبَتْ، وَرَآهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: مَا هَذَا بِالْعَدْلِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ.

وَهُنَالِكَ رِوَايَاتٌ أُخْرَى يَدُلُّ مَجْمُوعُهَا عَلَى أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ قَالَهُ أَفْرَادٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَكَانَ سَبَبُهُ حِرْمَانَهُمْ مِنَ الْعَطِيَّةِ كَمَا هُوَ مُصَرَّحٌ بِهِ فِي الْآيَةِ، وَكَانُوا مِنْ مُنَافِقِي الْأَنْصَارِ، بَلْ كَانَ جَمِيعُ الْمُنَافِقِينَ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَا حَوْلَهَا، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ هَؤُلَاءِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ أَسْلَمُوا فِي وَقْتِ ضَعْفِ الْإِسْلَامِ، وَاحْتَمَلُوا الْإِيذَاءَ الشَّدِيدَ فِي سَبِيلِ إِسْلَامِهِمْ، وَلَا مِنَ الْأَنْصَارِ الْأَوَّلِينَ كَالَّذِينَ بَايَعُوا النَّبِيَّ ــ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ــ فِي مِنًى، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى غَزْوَةِ حُنَيْنٍ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ سَبَبُ حِرْمَانِ النَّبِيِّ ــ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ــ الْأَنْصَارَ مِنْ غَنَائِمِ هَوَازِنَ، وَمَنِ اسْتَاءَ مِنْهُمْ وَمَنْ تَكَلَّمَ، وَإِرْضَاءُ النَّبِيِّ ــ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ــ لَهُمْ، وَلَكِنَّ الْآيَةَ نَصٌّ فِي قِسْمَةِ الصَّدَقَاتِ، فَجَعَلَ الْغَنَائِمَ سَبَبًا لِنُزُولِهَا مِنْ جُمْلَةِ تَسَاهُلِهِمْ فِيمَا يُسَمُّونَهُ أَسْبَابَ النُّزُولِ.(١)

ومن هذا النص يتضح لنا أن الإمام أورد الروايات التي ذكرها بعض المفسرين، وجمع بينها، ثم انتقد تساهل بعضهم في أسباب النزول، وإقحام بعض الروايات في غير موضعها.(٢)

---

(١) تفسير المنار(١٠/٤٢٠،٤٢١)

(٢) ومن ذلك أيضاً ما ذكره عند تفسير الآية رقم (٧٥) من سورة الأنفال، تفسير المنار(١٠/١٣١)

الخاتمة:

في نهاية المطاف لهذه الدراسة يستخلص البحث عدة نتائج، أهمها ما يلي:

أولاً: أن سبب النزول هو: ما نزلت بشأنه بعض الآيات القرآنية وقت وقوعه متحدثة عنه، كحادثة وقعت، أو مبينة لحكمه، كجواب عن سؤال.

وعلم أسباب النزول هو: العلم الذي يختص بمعرفة نزول الآيات القرآنية من القضايا والحوادث زماناً ومكاناً.

ثانياً: للعلم بأسباب النزول فوائد جمة وآثار عظيمة، منها: التأكيد على أن القرآن الكريم نزل من عند الله تعالى، كما أنها تساعد على فهم الآية ودفع الإشكال عنها، والعلم بها ييسر حفظ الآيات، ويثبت معناها، ويلفت أنظارنا إلى الحكمة من تدرج التشريع، ويوضح من نزلت فيه الآية بعينه، حتى لا تُحمل على غيره بدافع الخصومة والتحامل، وكذلك التأكيد على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ثالثاً: لصاحب المنار نظرة في أسباب النزول تختلف عن كثير من المفسرين، فقد كان يناقش روايات أسباب النزول، وينتقد كثيراً منها، فيعترض على سبب النزول الذي يسوقه بعض المفسرين، ويبين أن هذا الاعتراض قائم على وحدة السورة وترابطها، وبهذا يستبعد سبب النزول الذي يفت في عضد وحدة الآيات وترابطها، ويستدرك أسباب النزول التي ساقها بعض المفسرين، ويعقب عليها بما يتوافق مع وحدة الآية، وينتقد كذلك سبب النزول الذي يسوقه بعض المفسرين، لعدم موافقته لحدث الآية الحقيقي وقصتها وسياقها وترابطها، وينتقد كذلك بعض المفسرين لإيرادهم سببين للنزول، كل سب منهما لجزء معين من الآية، وهذا عنده باطل؛ لأنه يؤدي إلى تجزئة الآية الواحدة، كما أنه يورد الروايات ويجمع بينها، فيجعل الصحيح منها سبباً، وغيره شرحاً وتفسيراً، وينتقد تساهل بعض المفسرين في أسباب النزول، وإقحام بعض الروايات في غير موضعها.

المصادر والمراجع

(أ) القرآن الكريم

(ب) المراجع الأخرى

١- الإتقان في علوم القرآن، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م .

٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣- أسباب النزول، لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري، تحقيق: كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ

٤- الأعلام، لخير الدين الزركلي، ط. دار العلم للملاين، ط الخامسة عشر، مايو سنة ٢٠٠٢م

٥- البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، المحقق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت

٦- البرهان في علوم القرآن، بَدْر الدِّينِ مُحَمَّد بْن عَبْدِ اللَّهِ بْن بهادر الزركشي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه

٧- التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، تحقيق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م

٨- تفسير الجلالين، لجلال الدين محمد بن أحمد المحلي، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الحديث، القاهرة، الطبعة: الأولى.

٩- التفسير والمفسرون، لمحمد حسين الذهبي، مكتبة وهبه، القاهرة.

١٠- دراسات في علوم القرآن الكريم، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، الطبعة: الثانية عشرة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

١١- دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل، دار المنار، الطبعة: الثانية ١٤١٩هـ-١٩٩٩م

١٢- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط: أولى ١٤٢٢هـ
١٣- صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج القشيري ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.
١٤- لسان العرب، لجمال الدين بن منظور الإفريقي، ط: بولاق ــ الدار المصرية للتأليف والترجمة
١٥- مباحث في علوم القرآن، لصبحي الصالح، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة والعشرون كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠م
١٦- مباحث في علوم القرآن، لمناع خليل القطان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة: الطبعة الثالثة ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م
١٧- المجددون في الإسلام من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر، لعبد المتعال الصعيدي، ط مكتبة التراث.
١٨- مجلة المنار، لتامر محمد محمود متولي، ط الأولى سنة ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م ٠
١٩- المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة، خالد بن سليمان المزيني، دار ابن الجوزي، الدمام، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، (١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م)
٢٠- المحرر في علوم القرآن، مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، الطبعة: الثانية، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م
٢١- مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م
٢٢- مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، عبد الجواد خلف محمد عبد الجواد،دار البيان العربي، القاهرة
٢٣- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي، المكتبة العلمية، بيروت، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد عمر، عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

٢٤- المفسرون مدارسهم ومناهجهم، فضل حسن عباس ط دار النفائس، الأردن، سنة ١٤٢٧هـ ٢٠٠٧م

٢٥- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزُرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي، الطبعة الثالثة.

٢٦- الموافقات، لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م